سُورَةُ التَّكْوِيرِ

عرض ودراسة

ترسم سورة التكوير يوم القيامة وما يَحْدث ، إيذاناً به ، من ستة أحداث خطيرة ، هى تكوير الشمس ، وانكدار النجوم ، وتسيير الجبال ، وتعطل النوق الحوامل أو تعطل السحب ، وحشر الوحوش ، وفيضان البحار واتصال مياهها أو إضرامها بالنار . ثم ما يحدث فى هذا اليوم من ستة أحداث أخرى لا تقلُّ عن سابقتها خطورة ، هى تزويج النفوس بأبدانها أو بأقرانها ، وعَرْض الموءودة وقضيتها بين يدى الرّحمن ، ونَشْر صحف الأعمال أمام العباد ، وانكشاف غطاء السماء وحجابها ، واضطرام الجحيم واشتعالها ، واقتراب الجنة ودنوها . ويقسم الله ، جلَّ شأنه ، قسماً عظيماً بالكواكب والنجوم فى اختفائها وظهورها ، وبالليل حين تأخذ دياجيه تنحسر ، وبالصبح حين تأخذ أضواؤه تنبثق ، بأن الذكر الحكيم إنما هو وحى جبريل الرسول الإلٰهى الكريم القوى عند ربه المطاع فى السموات الأمين . وتقول السورة ما حديث رسولكم محمد عنه حديث مجنون ، فقد رآه بالأفق الأعلى المبين رؤية اليقين ، وإنه للصادق الصّدوق الذى يَرْقَى فى كل ما يحدِّث به عن أى شك أو ريبة أو اتهام ، وليس لكم مفر من كل ما أنذركم به من بعث وجزاء . وإنها لشريعة يحملها إلى العالم جميعه تَهْدى إلى الحق المبين من أراد أن يسلك الطريق النيرة إلى الهدى والرشاد إرادةً تستند إلى إرادة رب العالمين .

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) :

(كُوِّرَتْ) من التَّكْوير ، وللكلمة واشتقاقاتها معان متقابلة ، فهى تأتى

بمعنى ضم الشيء بعضه إلى بعض ، ومنه كارَ العمامة وكوَّرها بمعنى عَصَبها وشدَّ أجزاءها . وتأتى بمعنى سقط. ومنه تكوَّر الحِمْل إذا سقط. . وتأتى بمعنى التغشية والسَّتْر . وتأتى بمعنى الإلقاء والإزالة ، يقال طعنه فكوَّره إذا ألقاه وصرعه . وإذا جعلنا الكلمة فى الآية بمعنى الإلقاء والإزالة التقت فى معناها بقوله تعالى فى سورة الأنبياء : (يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) والآية لا تريد الطىّ بآلة أو علاج ، وإنما تريد الدلالة على الذهاب والفناء ، ومثلها التكوير هنا بمعنى الإزالة والسقوط وضم الشيء بعضه إلى بعض . فهذه المعانى الثلاثة متقاربة ، وتنتهى إلى إفناء الشمس والذهاب بها . ويمكن أن يكون معنى (كُوِّرَتْ) غُشِّيَتْ ، وهى بهذا المعنى تلتقى بقوله جَلَّ شأنه فى سورة الزمر : (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) أى يغشِّى الليل النهار فيذهب بضوئه ويغشِّى النهار الليل فيذهب بظلمته وهو معنى آية سورة الأعراف : (يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُه حثِيثًا) . وتغشيتها أو ستر ضوئها ينتهى إلى إفنائها أى إفناء نورها وطمسه . وقيل معنى (كُوِّرَتْ) ألقيت من فلكها على الأرض كأنها تُطْعَنُ ثم يُلقَى بها ، وقيل بل يلقى بها فى النار زيادة فى عذاب الكفار ، واعتُرض على هذا القول بأن النور لايلحق بالنار وإنما الحرى أن يلحق بالجنة وأهلها . وحاول بعض المفسرين أن يوفق بين الرأيين ، فقال إن الشمس تحمل النور والنار أو النورية والنارية ، فما كان فيها من النورية يلحق بنور العرْش وما كان فيها من النارية يلحق بالنار . والعودة بنور الشمس إلى العرش إنما هو امتداد لما قيل من أن الله خلق الشمس والقمر من نور العرش ، وأنه طَمَس الضوء من القمر وبقى فيه النور ، حتى يوجد التمييز فى وضوح بين الليل وقمره والنهار وشمسه . وهذه الأقوال وما يماثلها إنما هى تأويلات لمثل قوله تعالى فى سورة الإسراء :

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجعلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فضلاً مِنْ رَبِّكُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدد السنِينَ وَالْحِسَاب) والله جَلَّ شأنه ، فى هذه الآية وما يشبهها إنما يتحدث عن آياته الكونية وأنه ، كما يقول فى هذه الآية ، خلق الليل والنهار بتعاقبهما واختلافهما ، ليكون النهار معاشاً فى ضوئه المبصر ، وليكون الليل سكناً وراحة ومناماً فى دجاه المظلم ، وليتم نظام الحياة الإنسانية وتتم دوراتها التاريخية . ومن الزيادات ، وقد يكون مما دخل على التفسير من الإسرائيليات ، أن يُقال : « إذا قامت القيامة وقضى الله بين الناس وميَّز بين أهل الجنة والنار ولم يدخلوهما بعدُ يدعو الرَّبُّ تعالى بالشمس والقمر ، ويُجاء بهما أسْوَدين مكوَّرين (مطويين ملفوفين) قد وقفا فى زلازل وبلابل تُرْعَدُ فرائصهما من هول ذلك اليوم ومخافة الرحمن ، فإذا كانا حِيال العَرْش خَرَّا لله ساجدين ، فيقولان : إلٰهنا قد علمتَ طاعتنا لك ، وأدبَنا فى عبادتك وسرعتنا للمضى فى أمرك أيام الدنيا فلا تُعذِّبْنا بعبادة المشركين إيانا ، فقد علمتَ أنا لم نَدْعُهم إلى عبادتنا ، ولم نَذْهل عن عبادتك . فيقول الرَّبُّ : صدقتما إنى قد قضيتُ على نفسى أن أُبدئ وأعيد » إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الأنبياء : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وعْدًا علَيْنا) » وإنى مُعيدكما إلى ما بدأتكما منه ، فارْجِعا إلى ما خلقتكما منه ، فيقولان : ربنا ممَّ خلقتنا ؟ فيقول : خلقتكما من نور عرشى ، فارجِعا إليه ، فتلمع من كِلٍّ منهما بَرْقَةٌ تكاد تخطف الأبصار نورًا ، فيخلطان بنور العرش » . وواضح أن كل هذا تزيد ، ومن شأنه أن يحجب الفهم الدقيق للآيات القرآنية . والآية فى السورة إنما تشير إلى علامة من علامات الساعة ، وهى أن الشمس تكوَّر ، أو بعبارة أخرى ، يُمْحَى ضَوْءُها ، ويشهد لذلك قوله ، جَلَّ وعَزَّ ، فى سورة القيامة : (فَإِذَا

بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ والقمرُ يَقُولُ الْإِنسَان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ) فالبصر يتحيَّر ويُبْهَتُ ، والقمر يُخْسَفُ ويذهب ضوءه جميعه ، ويُقْرَنُ بينه وبين الشمس فى ذهاب الضوء كما رُوِىَ عن الرسول عليه السلام . وهذا هو المراد بالتكوير فى الاية ، ومعروف أنها كرة هائلة من غازات متجمعة مرتفعة الحرارة ، مما يجعلها جسماً غير متماسك لا يزال يرسل بألسنة اللهب والضوء ، وكأنما ستحدث فيها قبيل القيامة انفجارات تذهب بضوئها ، وحينئذ تفنى الأرض ومَنْ عليها وتصبح ظلاماً فى ظلام ، إذ كل وجودها وظاهراتها الطبيعية إنما يرجع إلى أضواء الشمس ، يرجع إليها نور القمر الناشئ عن انعكاس أشعتها عليه كما ترجع الرياح الناشئة عن حرارة سطح الأرض بدرجات متفاوتة ، وكذلك السحب والأنهار التى تنشأ من تسلط أشعة الشمس على مياه البحار والمحيطات . ولا نغلو إذا قلنا إن كل ظاهرة طبيعية على وجه الأرض ترجع إلى الطاقة المنبعثة من الشمس ، فحين تُمْحَى هذه الطاقة ويُمْحَى معها الضوء والنور يكون ذلك إيذاناً بموت كل ما على الأرض وفنائه .

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) :

معنى (انكدرت) فى رأى جمهور المفسرين انتثرت لقوله تعالى فى سورة الانفطار : (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ) . وعن ابن عباس : (انْكَدَرَتْ) وقعت على وجه الأرض ، وذلك أنها - كما رُوِى عنه - قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور ، وتلك السلاسل بأيدى ملائكة من نور ، فإذا مات فى النفخة الأولى منْ فى السموات ومَنْ فى الأرض

تناثرت تلك الكواكب وتساقطت سلاسلها لأنه مات من كان يمسكها من الملائكة . وعن ابن عباس أيضاً : (انكدرت) تغيرت فلم يبق لها ضوء ، وكأن انكدارها طمس أضوائها ، ولعل هذا نفسه هو معنى آية الانفطار : (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ) فهو انتشار مجازى يُراد به ذهاب أضوائها وانمحاؤها كما جاء فى آية سورة المرسلات : (فإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ) وبذلك تكون (انكدرت) مشتقة من الكُدْرة فى اللون أى عدم صفائه ، والمراد انطماس أضوائها تماماً كما انطمست أضواء الشمس وانمحت فى الآية السابقة ، فلا يكون هناك أى ضوء يُرَى ، فقد فنيت أضواء الشمس وماتت ولم يعد هذا السراج الوهاج يرسل إلى الأرض طاقته وأشعته وأنواره ، وتبعته مصابيح النجوم بما يحدث فيها هى الأخرى من انفجارات فى كُتلها الغازية الضخمة أو بنفاد ما تحتاج إليه من وقود الإيدروجين ، فإذا هى تفقد توقدها ولمعانها الذى نراه فى الليل ، وتصبح مثل الشمس حينئذ كتلاً مادية لا حرارة فيها ولا ضوء ولا إشعاع . على الأقل يحدث ذلك فى المجموعة الشمسية ، إذ تصبح الشمس كتلة سوداء مظلمة يكسوها ظلام أبدى ، يغمرها ويغمر كواكب مجموعتها ونجومها بحيث تظل على ولائها لأمها الشمس ، وتموت معها نفس الموتة إذ تلفظ روحها ، وبعبارة أدق حرارتها ، وتصبح كتلا سوداء ضخمة . وبالمثل تلقى الأرض حتفها وتموت كل حياة فيها . بل لعل ما يحدث حينئذ أبعد من ذلك ، فلن يحدث ما صوَّرناه للشمس ومجموعتها فقط ، بل يحدث أيضاً لمجاميع نجمية أخرى ، وكأن انهيارًا كونيًّا لا حدود له ولا أبعاد سيحدث ، أو قل كأن انهيارًا كاملا سيحيق بالعالم على نحو ما يقع انهيار فى بناء متعدد الطبقات تعددًا ضخماً ، فإذا

جميعه يصبح أنقاضاً . ولا ريب فى أن ذلك سيحدث بسرعة خاطفة لا تكاد تُعْطَى فيه فرصة لأحد ممن سيحضرونه كى يتبينه فى وضوح ، وسيعقب ذلك فناؤه وفناء كل من على الأرض معه . وهى حيرة بالغة تأخذ بتلابيب الأحياء وسرعان ما يرون الموت ماثلا نصب أعينهم ، فقد حَقَّت ساعة الفناء ، ساعة تتكاثر أهوالها فى السموات وفى الأرض ، أما السموات فتنطوى شمسها ونجومها ، وأما الأرض فعلينا أن نتابع ما يحدث لجبالها ، وأناسيّها ووحوشها وبحارها ، مما سيرى فيه الإنسان صورًا من الرعب لا يحيط بها وهم ولا خيال .

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) :

تسيير الجبال نَزْعها من أماكنها وتسييرها منفصلة عن وجه الأرض أو مع ما حولها كما جاء فى سورة النَّمْل : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) فهى فى مرأى العين كالقائمة فى حين أنها تسير سيرًا حثيثاً ، أو لعلها تسير بمن حولها أو بمن عليها فلا يحسون أنها متحركة أو سائرة . وقد تردَّد وصف هذا الحادث فى القرآن على وجوه متعددة ، إذ ذُكر أن الجبال تزلزل مع الأرض وتُحْمَلُ من أماكنها وترفع وتُدَقّ دقة واحدة كما جاء فى آية سورة الحاقَّة : (وحُمِلتِ الْأَرْضُ والْجِبالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) والدك الحَطْمُ . وذكر القرآن فى سورة القارعة أنها تصير (كَالْعِهنِ الْمَنْفُوشِ) والعهن الصوف والمنفوش المندوف المتفرق الأجزاء المتطاير فى الجو ، وذلك حين تُصبح السماء كالمُهلِ وهو المعادن المنصهرة كما قال ، جَلَّ شأنه ، فى سورة المعارج : (يومَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ) . وجاء

فى القرآن أيضاً أنها تصير بعد تَزَلْزُلِ الأَرض وما يصيبها من البَسِّ أى التفتت والدكِّ والدَّقِّ الشديد غباراً متطايرا فى الهواء متفرقاً على نحو ما صوَّرت ذلك آياتُ سورة الواقعة : (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا) ، والهباء المنبثّ ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار، وهو أيضاً التراب الدقيق الذى يخرج من الكُوَّة فى ضوء الشمس ، وقيل هو ما تذروه الرياح من يابس أوراق الشجر ومن الغبار . والمنبث المتفرق والمنتشر . وقيل البَسُّ السَّوْق أى سِيقَتِ الجبال وسُيِّرت . وذُكر فى القرآن أيضاً أن الجبال تُنْسَفُ عن الأَرض نسفاً على نحو ما تصوِّر ذلك آية سورة طه : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً) ، وكأَن الله يزيلها عن الأَرض حتى تبرز ، وحتى تصبح مستوية استواءً واحدًا كما قال فى فى سورة الكهف : (ويومَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرى الْأَرض بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) . وجاء فى القرآن أيضاً أن الجبال تصبح سراباً إذ تتطاير أَجزاؤها وذَرَّاتها كأَنها سرابٌ إذا جاءه الناظر لم يجد شيئاً لانتشار موادها وعناصرها . وكل ذلك تصويرلما سيحدث على الأَرض فى نهاية العالم من تغيير فى صورتها ، إذ تُرْفَعُ منها الجبال وتصبح كما جاء فى سورة طه : (قاعاً صَفْصَفاً لاَ تَرى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمتاً) . فهى قاع مستو أملس لا نبات فيها ، إذ لم تعد تُرْسَل إليها أَسباب الحياة من الشمس وطاقتها الحرارية وغير الشمس ، لقد أَصبحت فضاء خالياً من كل حياة وليس فيه عِوَجٌ أَو مكان منخفض ولا أَمْتٌ أَو مكان مرتفع ، أَو بعبارة أخرى لم يَعْدُ بها أودية ولا رَوابٍ ولا أَى انخفاض أَو ارتفاع يَدِقُّ عن البصر والإِدراك . لقد أَخذت تستحيل عن طبيعتها مع ما حدث من استحالة فى السماء والشمس والنجوم

استعدادًا للنشأة الثانية وما سيحدث للعالم من خلق جديد لا يعلم حقيقته وكُنهَهُ إلا الله .

(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ) :

ذهب جمهور المفسرين إلى أن العِشار هنا على حقيقتها جمعاً لعُشَراء ، وهى الناقة التى أتَى عليها فى الحمل عشرة أشهر ، ويظل ذلك اسمها حتى تضَع حين يستدير العام ، وبعد أن تَضع . وإنما خَصَّتِ الآية العِشَار بالذكر لأنها عزيزة عند العرب . و (عُطِّلَتْ) أُهْمِلَتْ ولم يُعْنَ بها أصحابها مع كونها مرغوبة بل محبوبة عندهم . وهو مَثَلٌ أُرِيد به تصوير هول يوم القيامة ، بحيث لو كان للشخص ناقة عُشَراء عزيزة على نفسه لعطّلها وأهملها واشتغل بنفسه ، فكل شخص حين تدق علامات الساعة يشْغَلُ عن جميع أمواله وأعماله فى دنياه . وقيل ، وهو قولٍ ضعيف : إنهم إذا قاموا من قبورهم وشاهد بعضهم بعضاً ورأوا الوحوش والدوابَّ محشورةً وفيها عِشارهم التى كانت أَنْفَسَ أموالهم إليهم لم يعْبَئُوا بها ولم يهمهم أمرها . والآية فى مقدمات قيام الساعة وأماراتها لا بعد قيامها . وقيل العشار فى الآية الديارُ تُعَطَّلُ فلا تُسْكنُ . وهى استعارة بعيدة ، ومثلها قَوْلُ مَنْ قال : العِشار الأَرض التى يُعَشَّرُ زَرْعها تعطَّل فلا تُزْرَعُ . وقيل ، ولعله أقرب الأقوال إلى الصحة لالتئامه مع سياق الآيات ، إن العِشار هى السحاب يعطَّل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر ، والعرب تشبِّه السحاب بالحوامل . وقد جاء ذلك فى قسَم الله بسورة الذاريات ، إذ قال : (والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا . فَالْحامِلَاتِ وِقْرًا) ، والذاريات : الرياح و (الْحامِلَاتِ وِقْرًا) : السحاب تحمل الوِقْر

أو المطر ، وهو حياة الأرض . وكأن الآية تكميل لما قبلها ، فقد انطفأت الشمس وطاقاتها الحرارية التى كانت تسلِّطها على مياه البحار والمحيطات فيتصاعد البخار وينعقد فى السحب أمطارًا تسيل على الأرض فتحييها بعد موتها وتنبت نباتاً من كل نوع وتثمر أشجارها ثمارًا من كل لون . إن هذا المطر الذى أسال الله منه الأنهار وجعل منه كل شىء حىٍّ بقى فى مخازنه أو خزائنه الأصلية ولم يعد ينطلق إلى السماء ولا عاد يبعث الحياة إلى الأرض ، فقد أصبح كل شىء فيها على وشك الفناء والموت وأن يفقد كل حركة .

(وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) :

الوحوش جمع وحْش وهو مالا يستأنس من حيوان البَرِّ . واختلف المفسرون فى معنى (حُشِرَتْ) فقيل معناها بُعِثَتْ ، وإنها تُبْعَثُ كالإنس حتى يُقْتَصَّ لبعضها من بعض ، فيُقْتَصُّ للوحوش التى لا قَرْن لها من ذوات القرون ، ثم يقال لها كونى تراباً فتموت . وقيل إنها تُحْشَرُ حتى الذُّباب للقِصاص ، فإذا قُضِى بَينها رُدَّتْ تراباً ، فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبنى آدم وما يُعْجَبُ به لصورته أو لصوته كالطاووس والبُلْبُل ونحوهما . وقال الفخر الرازى : ذهبت المعتزلة إلى أن الله تعالى يحشر الحيوانات جميعها فى يوم البعث ليعوِّضها عن آلامها فى الدنيا بالموت أو القتل وغير ذلك ، فإذا عُوِّضَتْ عن تلك الآلام أبقى الله بعضها فى الجنه وأفنى بعضها حسب مشيئته ، وأما أهل السنة فعندهم أن الله لا يجب عليه شىء بحكم الاستحقاق والعدل ، ولكنه يحشر الوحوش كلها ليُقْتَصَّ من الظالمة للمظلومة أو من ذوات القرون لمن لا قرون لها ، ثم يقال لها موتى فتموت . وقيل إن الغرض من ذكر بعث الوحوش فى الآية على هذا التفسير أنه إذا كانت الوحوش تُحْشَرُ من أجل العدل

الإلٰهى فأولى أن يُحْشَر المكلفون من الإنس والجن . وأيضاً فإن الآية تُشير إلى أن الوحوش التى كانت تنفر فى الدنيا من الإنسان وتفزع إلى الغابات والصحارى فرارًا منه تأنس إليه فى يوم القيامة حين البعث وكأنها تُذْهَلُ عن أنفسها لشدة الأهوال فى ذلك اليوم الخطير. وقيل : ليس معنى الحشر فى الآية الكريمة البعث ، وإنما معناه ، الجمع أى أن الوحوش حين تبدأ علامة الساعة فى الظهور تتجمع ويموج بعضها فى بعض من شدة الفزع، وهذا المعنى أولى من حيث نسق الايات، إذ لا تزال تتحدث عن أمارات فناء العالم ، فهو حين تنزل به كوارث هذا الفناء ، فتنطفئ الشمس والنجوم ويفقد السحاب أمطاره وتدمّر الجبال وتصبح هباء حينئذ تتجمع وحوش الأرض هائمة على وجهها ، لا تفكر فى عدوان سواء على أمثالها أم على الإنسان ، فهى فى شغل بما نزل بها وبالكون من أهوال . وفى ذلك تجسيم واضح لما يكون حينئذ من كرب عظيم وفزع شديد . وقيل معنى (حُشِرت) فى الآية ماتت . وكأن الوحوش تموت من شدة الهول وما يأخذها من الفزع .

(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) :

اختلف المفسرون فى معنى (سُجِّرَتْ) فقيل معناها مُلِئَتْ من الماء إذ تقول العرب سَجَرْتُ الحوض إذا ملأته ، وقالوا إن البحار يَفيض بعضها إلى بعض فتصير بحرًا واحدا ، إذ يرفع الله الحاجز الذى ذكره فى آية سورة الرحمن ، قائلا : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ) فالبرزخ أو الحاجز يُرْفَعُ وتتفجَّر مياه البحار ويعم ذلك فى بحار الأرض كلها وتصبح بحرًا واحدًا ، يختلط فيه العذب بالمالح . واحتج أصحاب

هذا التفسير بآية سورة الانفطار : (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) وحاولوا أن يعللوا لصيرورة البحار بحرًا واحدًا ، فقالوا إن الجبال تندكّ ويتطاير ترابها الهائل فلا جرم أن ينصبَّ فى أغوار الأرض حينئذ ، وهى البحار ، فتملؤها ويصبح وجه الأرض مستوياً مع قاع البحار ، وبذلك تصبح بحرًا واحدًا مسجورًا أو ممتلئاً . وواضح ما فى ذلك من تكلف . وقيل معنى (سُجِّرَتْ) مُلِئت نارًا من سَجَر التَّنُّور إذا ملأه بالحطب ليوقده نارًا ، أو بعبارة أخرى إذا أحماه بالوقود ، وكأن معنى (سُجِّرَتْ) أوقدت . وللمفسرين تعليلات كثيرة لوجود النار فى البحار حينئذ ، فقيل إن النيران موجودة تحت قيعان البحار ، وحرارتها لا يصل أثرها إلى ما فوقها من المياه لينتفع أهل الأرض بها ، فإذا انقضَت مدة الدنيا رُفع الغشاء بين المياه وتلك النيران فتستحيل المياه حميماً . وقيل إن المياه تتبخَّر بتأثير تلك النيران ولا يبقى فى البحار قطرة وتيبس قيعانها وتمتلئ بتراب الجبال ؛ وتصير البحار والأرض كلها بساطاً واحدًا . والتفكير فى كيفية ملء البحار بالنار أو إيقادها بها مما لا يعلم حقيقته إلا الله ، وبالتالى لا نستطيع أن نجزم بأن ذلك سيكون عن طريق براكين أو زلازل أو تفجرات لنيران سائلة فى باطن الأرض وفى قيعان بحارها ، إنما علينا أن نؤمن بأن البحار تُسْجَر يوم القيامة أو قبيل وقوعه مباشرة فتضطرم نارًا تتعالى فيها ألسنة اللهب . ولن يعجز الله ذلك لنحاول تصوره ، فقدرته لا يعزُّ عليها شىء فى الوجود ، وهو قادر على أن يحيل الماء نارًا متأججة ، فكل ما على الأرض من بحار وغير بحار بيمينه يصرِّفه كيف يشاء . وقد عرفنا فى دراسة سورة الرحمن أن الأرض كما جاء فى سورة إبراهيم : تُبدَّلُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، يبدَّل كل ما فيها ، فالجبال تصبح سراباً والبحار تصبح تَنُّورا

واقدًا وتتشقق قشرتها الظاهرة وتتمزق ، وتُخْرج كل ما فى باطنها من دفائنها ومن أفلاذ كبدها من الإنس . ويروى عن أُبيّ بن كعب الصحابى الجليل أنه علَّق على هذه الآية والآيات الخمس قبلها ، فقال : « ست آيات قُبَيْل يوم القيامة ، بينما الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودهشوا ، فبينماهم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم ، فبينماهم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واحترقت فصارت هباء منثورًا ، ففزعت الإنس إلى الجن ، والجن إلى الإنس ، واختلطت الدوابُّ والوحوش والهوامّ والطير وماج بعضها فى بعض فذلك قوله تعالى : (وإذَا الوُحوشُ حُشِرَتْ) فحينئذ تقول الجن للإنس : نحن نأْتيكم بالخبر ، فينطلقون إلى البحار فإذا هى نارٌ تأَجَّج وتتلهَّب ، فبينماهم كذلك إذ تصدَّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، فبينماهم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم جميعاً » . وقد تلت هذه الآيات الست ثمانى آيات فى تصوير يوم القيامة وما يكون به من البعث والنشور .

(وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) :

من المفسرين مَنْ ذهب إلى أن النفس غير الروح وأن فى الإنسان نَفْساً وجسدًا وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس هى التى بها العقل والتمييز ، والروح هى التى بها الحياة والأنفاس والحركة . والصحيح أن النفس والروح شىء واحد . وتشهد بذلك الآثار الصِّحاح ، من ذلك حديث أمِّ المؤمنين أم سَلمة إذ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الروح

إذا قُبِضَ تَبِعه البصر » يشير إلى أن بصر الميت يَشْخصُ حين تخرج روحه منه وكأنما يتْبعُ بصره روحَه . وعن أبي هُريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تحضر الملائكة عند الموت ، فإذا كان الرجل صالحاً قالوا اخْرُجِي أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، اخْرجى حميدةً وأبْشرى برَوْح ورَيْحان وربٍّ راضٍ غير غضبان ، فلا يزال يُقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء » . والنفس لطيفة ربّانية لا علم لأحد بسِرِّها مع معاشرتنا لها طوال حياتنا ودوام المرافقة لها والصحبة فى اليقظة والمنام ، ومع ذلك لم يصل أحد إلى معرفة كُنْهها وحقيقتها فقد استأثر الله بمعرفة ذلك لنفسه ، يقول جَلَّ شأنه فى سورة الإسراء : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) . وقال الغزالى فى الإحياء : الروح فى الآية هى النفس الناطقة وهي اللطيفة الربانية التى لا تفنى بفناء البدن وتبقى بعد الموت، والله يقول إنها مما استأثر لنفسه بعلمه من الأسرار الخفية ، ويقول ما معناه إن هذه الروح روحانية ، وهناك روح حيوانية ، وهى التى تفنى بفناء البدن ، ومركزها القلب ، وهى التى تبعث فى الجسم قواه — من الحياة ومن الحواس والطاقات الجسمانية ، وهى تنتشر فى الجسد بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وهى التى تبعث الحياة فى الجسم على نحو ما يبعث السراج النور فى البيت. واختلف المفسرون فى المراد بزواج النفوس ، ومعروف أنه يقتضى المقارنة ، وقيل المراد به فى الآية اقتران كل شخص مع من يشاكله ، فيُقْرَنُ الفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح . وقيل إن الآية تشير إلى آيات سورة الواقعة وما جاء فيها من أن الناس يوم القيامة أزواج ثلاثة : السابقون المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، فكل شخصٍ يُقْرَنُ بطائفته . وقيل يُقْرَنُ كل فرد بأفراد أمته ، فالمسلمون معاً ،

والكافرون معاً ، والنصارى معاً . وقيل يُقْرَن كل شكل بشكله من أهل الجنة ومن أهل النار ، فالمبالغ فى الطاعة إلى مثله ، والمتوسط إلى مثله ، والعاصى إلى مثله فى عصيانه ، فكل شخص يُقْرَن بنظيره ، وكأن المعنى إذا النفوس قُرنت إلى أشكالها فى الجنة والنار ، كما قال تعالى فى سورة الصافَّات : (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) أى أشياعهم وأشباههم . وقيل : بل أزواجهم نساؤهم اللائى رَافَقْنهم على الكفر . وقيل يُقْرَن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين ويُقْرنُ العاصى بمن أغواه من شيطان أو إنسان . وقيل تُقْرَنُ النفوس بأعمالها ، عُدَّ اختصاصها بها كالتزويج ، فالنفوس الطيبة تُزَوَّجُ بأعمالها الحسنة والنفوس العاصية تزوَّج بأعمالها السَّيِّئَة . وقيل تزوَّج نفوس المؤمنين بالحور، ونفوس الكفرة تُقْرَنُ بالشياطين. وأولى من هذه الأقوال جميعاً قول عكرمة تلميذ ابن عباس إن معنى الآية أن النفوس تزوَّج بالأبدان ، فالتزويج إنما يراد به بعث الناس وتزويج النفوس الخيرة والشريرة بأجسادها . ومرَّ بنا فى سورة الرحمن أن القرآن ذكر مرارًا وتكرارًا أن البعث لن يكون بالنفوس أو الأرواح وحدها ، كما ذهب إلى ذلك بعض متفلسفة الإسلام إنما سيكون بالأجساد والنفوس معاً ولا عبرة بما يقال من أن الأجساد تتحلَّل بعد الموت فكيف تُبْعَثُ بهيئتها المادية ؟ إذ قلنا هناك إن تحللها لا يحول بين الله جَلَّ ثناؤه وبين بعث الناس فى أجساد مادية حقيقية ، أما كيفية ذلك فيخرج عن مدار علمنا ، وقد قال فى سورة الواقعة : (وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) فهى نَشأة أخرى لا يحيط علمنا فيها بأى شىء ، وينبغى التسليم بكل ما جاء عنها فى الذكر الحكيم دون تأويل أو مراجعة أو معارضة .

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) :

الموءودة المدفونة فى القبر حَيَّةً ، من الوَأْد ، وأصله فى اللغة الثّقل ، سميت بذلك لما يُطْرَح عليها من التراب فيئودها أو بعبارة أخرى يثقلها حتى تموت ، وكان ذلك شائعاً بين أعراب نجد . ويقول الزمخشرى : كان الرجل إذا وُلدت له بنت ، فأراد أن يستحييها ألبسها جُبَّةً من صوف أو شَعَرٍ تَرْعَى له الإبل والغنم فى البادية ، وإن أراد قَتْلها تركها حتى كانت سُداسية أى بنت ست سنين . فيقول لأُمها : طيِّبيها وزَيِّنيها حتى أذهب بها إلى أَحْمائها أو أخوالها ، وقد حفر لها بئرًا فى الصحراء ، فيبلُغ بها البِئْر ، فيقول لها : انْظُرِى فيها ، ثم يدفعها من خلفها ، ويهيل عليها التراب ، حتى يستوى البئر بالأَرض . ويُقال إن المرأة فى الجاهلية كانت إذا حملتْ حَفرت حُفْرَةً ، حتى إذا جاءها المخاضُ وقفت عليها ، فإن ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة وردَّتِ التراب عليها ، وإن ولدت ابناً عادت إلى أهلها فرحة . ويقال إن بنى تميم كانوا أكثر القبائل وأْدًا لبناتهم حينئذ ، ويُرْوَى أن أحد سادتهم ، وهو قيس بن عاصم حين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف تحريم الإسلام لِوَأْدِ البنات قال له : إنى وَأَدْتُ ثمانى بنات كُنَّ لى فى الجاهلية فماذا أفعل ؟ قال الرسول عليه السلام : أَعْتِقْ عن كل واحدة منهن رَقَبَةً « أى عبدًا » فقال : يا رسول الله إنى صاحب إبل ، فقال له : أَهْدِ « افْدِ » عن كل واحدة منهن بَدَنَةً « ناقة يضحَّى بها » إن شئت . وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لإحدى خَصْلتين : الأُولى مخافة الفقر والإملاق ، وفى ذلك يقول جَلَّ شأنه فى سورة الإسراء : (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاق

نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً) . والمراد بالأولاد البنات وبالقتل الوأْدُ ، والإملاق الفقر والحاجة . وقد تلطف جَلَّ ثناؤه فقال لا تخشوا الفقر وعجزكم عن الإنفاق عليهن فإننا نرزقهن كما نرزقكم . ثم قال إن قتلهن إثم عظيم ، لما يحمل من وقف التوالد والقضاء على النوع الإنسانى قضاء مبرماً . والخصلة الثانية الخوف من سَبْى البنات واسترقاقهن ، وكانت الحرب دائرة فى الجاهلية بين القبائل وكانت المرأة إذا سُبِيَت أصبحت مسترقَّةً مملوكة لمن سَبَوْها ، فتاة أو متزوجة ، وهو ما جعل سادتهم من مثل قيس بن عاصم التميمى يتورَّط فى هذه الجناية الآثمة ، وقد أشار الله جَلَّ ثناؤه إلى ذلك فى قوله بسورة النَّحْلِ : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) . وعبَّر الله عن الكآبة التى تُرْسَمُ على وجوه الآباء حين يبشَّرون بالأُنثى باسوداد الوجه وبِكَظْم النفس غمًّا وغيظاً ، وقال إن أباها يتردد بين إمساكها على ما قد يسبِّبه له هذا الإمساك من هوان الأسر وذلِّ الاسترقاق وبين دَسِّها فى التراب وَوأدها حية تخلُّصاً من العار المنتظر . وردَّ القرآن عليهم ما كانوا يقولونه من أن البنات لَسْنَ لهم ، إنما هن لله ، تشبيهاً لهن بالملائكة وما كانوا يزعمون فيها من أنها بنات الله ، وكأن الله ، عَزَّ وجَلَّ ، أحق لذلك بهنَّ منهم ، وهو بهتان عليه وافتراء شديد . وسؤال الموءودة كما صرَّحت بذلك الآية عن الذنب الذى قُتلت بسببه ووُئِدَتْ تَحْتَ التراب حَيَّة إنما هو سؤال توبيخ لقاتلها وسُخْط شديد على فعلته ، حتى كأنه أُسْقط عن درجة الخطاب ، فلم يخاطب مباشرة ، إنما خوطبت

من وقعت عليها الجناية كما يقال للطفل الذى ضُرِب بغير حق لِمَ ضُرِبْتَ وما ذنبك؟ والقائل يعرف أنه ضُرِب بغير ذنب. وهو مثل قوله تعالى لعيسى عليه السلام فى سورة المائدة : (أَأَنْت قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ) وعيسى لا يُقْصَد بهذا التبكيت والتوبيخ ، وإنما يُقْصَدُ من اتخذوه هو وأمه إلٰهين . وكذلك سؤال الموءودة توبيخ لوائدها وتبكيت ، ووَجْه ذلك أن المجنىّ عليه إذا سُئِل بمحضر الجانى ونُسبت إليه الجناية دون فاعلها الحقيقى أوبدون ذكر اسمه كان ذلك بعثاً لفاعلها ، أو جانيها ، على التفكير فى جنايته وأنه يستحق العقاب الأليم ، وهو نوع من الاستدراج فى أسلوب تعريض بليغ . وقد اختار الله هذه الجناية الفظيعة للحساب عليها يوم الجزاء ، ليشير إلى أن الإنسان مجزىّ بأعماله وبجميع جناياته ، وأيضاً ليجسِّم إثمها الفظيع وليقتلعه من نفوس العرب من تميم وغير تميم . وقد استنبط المفسرون والفقهاء من الآيتين الكريمتين أن أطفال المشركين الذين يموتون صغاراً لا يعذَّبون بكفر آبائهم وإشراكهم ، لأن التعذيب لا يستحقه أحد بدون ذنب يقع منه.

(وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) :

الصحف صحف الاعمال ، ونشرها فَتْحها بعد أن كانت مطويَّة ، إذ تُطْوَى عند الموت وتُنْشَرُ عند الحساب ، وهى الصحف التى كتب فيها الملائكة ما فعله أهلها من خير أو شر ، يراها الناس منشورة يوم القيامة ، ويقف كل إنسان على صحيفته ، ويعلم ما فيها ، فيقول كما جاء فى سورة الكَهْف : (مالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) وهو إحصاء نهضت به رسل الله من الملائكة كما جاء فى سورة الزُّخْرُف : (أَمْ يَحْسَبُونَ

أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) . وعن علىّ بن أبى طالب : إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشىء يكتبون فيه أعمال بنى آدم ، وعن الحسن البصرى فى قوله تعالى بسورة الجاثية : (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) معنى الآية : نستنسخ ما كتبته الحفظة على بنى آدم ، لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال . وقال بعض المفسرين : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العَرْش فتقع صحيفة المؤمن فى يده وفيها آيات سورة الحاقَّة : (فى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) . وتقع صحيفة الكافر فى يده وفيها آيات سورة الواقعة: (فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) . وواضح أن هذه الصحف غير صحف الأعمال . وقال بعض التابعين : هما نَشْرتان وطَيَّة ، أما ما حييتَ يابْنَ آدم فصحيفتك منشورة فأَمْلِ فيها ما شئتَ ، فإذا مِتَّ طُوِيَتْ ، حتى إذا بُعِثْتَ نُشِرَت ، وفيها : (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) . وتصوير القرآن لأعمال الإنسان فى دنياه بأنها مسجَّلة فى كتب وصحف لا يفلت منها مثقال حبة من خَرْدل إنذار شديد له وأنه يرى يوم القيامة أعماله منشورة أمامه لا تخفى منها على الله خافية . والصحف والكتب والتدوين وما يكتبه رسل الله وحفظته إنما هو بيان قوى لعلمه الذى وصفه فى سورة سَبأ بقوله: (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ) . ويقول العالم الجليل الشيخ محمد عبده فى تفسيره جزء عَمَّ تعليقاً على هذه الآية : «الصحف التى تنشر يوم القيامة بعد البعث هى صحف الأعمال ، والذى يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة

مبينة لا يرتابون فيها يوم الجزاء ، ويعبَّر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال ، أما كَوْنُ الصحف على مثال الأوراق التى نكتب عليها فى الدنيا أو على مثال الألواح أو ما يشبه ذلك مما جرى استعماله للكتابة عليه فذلك مما لم يصل علمنا إليه ، ولن يصل إليه بمجرد العقل ، ولم يُرْوَ عن المعصوم صلى الله عليه وسلم فيه نَصٌّ قاطع » . وقد ذكرنا فى مواضع مختلفة أن بيننا وبين عالم القيامة حجاباً ، إذ هو نشأة ثانية وخَلْق ثان وكل ما فيه إنما يقرِّبه إلينا القرآن الكريم ويجب علينا الإيمان بكل ما جاء فى وصفه والاعتقاد به اعتقاداً جازمًا مسلِّمين بأنه من الغيب الذى تقصر عقولنا عن إدراكه ، ألا ترى إلى الله جَلَّ ثناؤه يقول للرسول عليه السلام فى سورة الأحقاف : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ) وإذا كان الرسول نفسه يؤمر بأن يقول إنه لا يدرى بالضبط. ماذا سيحدث يوم القيامة فأولى لنا أن نكفَّ أنفسنا عن الحَدْس والتخمين، وأن لا نتصور الحياة الآخرة فى صورة دنيوية بحتة ، فإن كل ما جاء فى القرآن من هذا التصوير يقصر علمنا عن معرفة حقيقته وماهيته .

(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) :

الكشط رَفْع شىء عن آخر غطَّاه وغَشَّاه من فوقه ، أو هو نزع شىء عن آخر ملتصق به التصاقاً شديدًا كما يُكْشَط الجلد عن الشاة المذبوحة . وكأن السماء يوم القيامة تُكْشَط كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره ، فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشىء أو كما ينزع السقف . وهو تصوير لما سيحدث من تغير فى الكون ، وأنه لن تظل الأرض كما هى ،

وكذلك لن تظل السماء ، أما الأرض كما جاء فى هذه السورة فستصبح جبالها هباء وستصير بحارها أتوناً ضخماً تتطاير منه ألسنة اللهب والشرر ، وأما السماء فستنطفئ الشمسُ مصباحُها الكبير ، وستنطفئ جميعُ المصابيح الصغيرة من النجوم ، حتى إذا بُعِثَ الناس ونظروا من حولهم وجدوا أعمالهم منشورة أمام أبصارهم ، ولم يجدوا السماء التى تعودوها ، فقد (كُشطت) أو بعبارة أخرى أُزيلت ونُزعت ، ولم يعد هناك أرض وسماء ، فكل شىء قد تغير ، كما قال تعالى فى سورة إبراهيم : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ) . لم تعد السماء التى كانوا يعرفونها قائمة ولم تعد تنير فيها الشمس ولا عاد القمر يضىء فيها ولا عادت النجوم تلمع على صفحاتها ، فكل ذلك طُمس وطُمست معه السماء ، وأصبح الناس هم والكون جميعاً فى نشأة جديدة ، كان بينهم وبينها حجاب صفيق ، فرُفع الحجاب وأُزيل النقاب ، وكأن كل ما كنا نألفه فى كوننا قد انتهى وانمحى ، وانمحت معه السماء ، حتى غدت كأنها كانت غطاء للأرض ونُزع عنها نزعاً ، نُزع هو وكل ما كنا نراه فى عالمنا الدنيوى المحسوس بحواسنا الظاهرة من جبال وبحار وسماء وشمس وقمر ونجوم ، وأصبح الناس فى عالم جديد أو فى كون جديد لا صلة بينه وبين الكون القديم ، كون تزول فيه الحجب التى كانت تحول بيننا وبين رؤيته ومشاهدته ، إذ كُشِفَ عنا الغِطاء وزالت عن أبصارنا الغشاوة ، ولم يعد أمام الناس إلا إحدى دارين إما سعير الجحيم وإما جَنّة النعيم . ومن طريف ما يؤثر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : « لو كُشِفَ عنى الغطاءُ ما ازددتُ يقيناً » .

(وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ) :

قال بعض المفسرين إن الجحيم هى الدَّرَكَةُ السادسة فى النار ، والدركات، كما مرَّ بنا ، على التوالى جهنم ثم اللَّظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سَقر ثم الجحيم ثم الهاوية، غير أن من يتتبع الآيات القرآنية يجد كل اسم من هذه الأسماء يُطْلَقُ على النار بعامة . والجحيم مأخوذ من الجَحْمة وهى شدة تأجج النار ، والجاحم الجمر شديد الاشتعال . وقد توعَّد الله بالجحيم الكفار والطّغاة والفُجَّار، وقال فى سورة الصافّات ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، إن طعام أهل النار من العُصاة شجرة الزَّقُّوم، وقال إن أصول هذه الشجرة تمتد فى قَعْرها ، ثم تتفرع فروعاً تحمل ثماراً بَشِعَةً بشاعة رءوس الشياطين، وإنهم ليطعمون منها طعاماً مُرًّا كأنه شظايا من نار، فيفزعون إلى ماء يُطْفئون به نارها الملتهبة فى بطونهم ،فلا يجدون سوى حميم أو ماء حارٌّ لا يُطاق ،فيترامون عليه، يشربون منه ، بل يُصَبّ على رءوسهم صَبًّا ، فيقع فى حلوقهم وبطونهم يَغْلى ويَكْوى كما يكوى ثمر الزَّقُّوم ، يقول جَلَّ شأنه فى تلك السورة بعد أن تحدث عن نعيم أهل الجنة : (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) . وهو شَوْب يشوب ما طعموه ويخالطه فيقطّع أمعاءهم . وذُكرت الجحيم أيضاً فى عذاب الكافر الشحيح المتناهى فى الشحّ بسورة الحاقة ، وقد أُمِرَ زبانيتها بأن يجمعوا يديه إلى عنقه بالقيود ويحيطوا جسده بسلاسل ويشدُّوه بها إلى الجحيم ، يقول جَلَّ شأنه : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ

ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِراعاً فاسْلُكُوهُ) وسُوقوه وجُرُّوه على وجهه حتى ينال عقابه الأليم . و (سُعِّرَتْ) أُلْهِبَتْ وأُجِّجَتْ وأوقدت للعُصاة إيقادًا شديدًا . وقال بعض السلف : سَعَّرها وأجَّجها غضب الله وخطايا الكافرين . واحتجَّ بهذه الآية بعض أهل السنة على المعتزلة القائلين بأَنِ النار والجنة إنما يخلقان جميعاً فى النشأة الثانية يوم القيامة ، فإن تسعيرها زيادة فى التهابها لا حدوثها ابتداء ، فهى قد حدثت أو خلُقت قبل المعاد ، أما ما يكون فى المعاد ويوم القيامة فهو التسعير والتأجج والزيادة فى اللهيب والاشتداد . وعلى كل مسلم أن يؤمن إيماناً كاملاً بكل ما جاء فى الذكر الحكيم من عذاب الجحيم ، كما صوَّره الله ، أما أن الجحيم أو النار ستكون على شاكلة نارنا ووقودها الدنيوى من الحطب والبترول وغيرهما فذلك يخرج عن إطار معرفتنا لأن أمور الآخرة جميعها أو جمهورها على خلاف ما نعرف فى نشأتنا الأولى ، وهى نشأة لا تستطيع حواسنا الدنيوية أن تدركها إدراكاً دقيقاً .

(وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) :

(أُزْلِفَتْ) من الزُّلفة وهى القُرْب كما قال تعالى فى سورة المُلْك : (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً) أى قريباً ، فأزلفت معناها قُرِّبَتْ وأُدْنيت . وقيل إنهم يقرَّبون منها لا أنها تزول عن مواضعها ، فالمراد من التقريب العكس للمبالغة كما فى قوله تعالى بسورة الأحقاف : (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِين كَفَرُوا عَلَى النَّارِ) حيث تُعْرَض النار عليهم تحقيرًا وتحسيرًا ، فقلب للمبالغة . وقيل : المراد الإزلاف والتقريب المعنوى وهو جَعْلُ أهلها مستحقين لدخولها مقرَّبين منها

مكرَّمين . وقيل إنها تقرَّب فعلا من المتقين كما تقرب النار من المحشر للكافرين . وقيل : بل تقرب من المتقين بتسهيل مسيرتهم إليها ، والمراد خواصُّهم إذ هم ثلاثة أصْنَافٍ أو أقوام : قوم يُحْشرون إلى الجنة مُشَاةً ، وهم الذين قال الله فيهم بسورة الزُّمَر : (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ربَّهُمْ إلى الجنَّةِ زُمَرًا) وهم الجمهور ، وقومٌ يُحْشَرون إلى الجنة رُكْباناً تكريماً وتشريفاً ، وهؤلاء هم الخواص ، وقوم تقرَّب الجنة منهم مكاناً غير بعيد بحيث يرونها وينظرون إليها قبل دخولها ، وهم المرادون بالآية ، وهم خواص الخواص . وقيل بل أهل الجنة جميعاً يذهبون إلى الجنة على النجائب مسرعين (زُمَرًا) أى جماعة بعد جماعة : يدخلها أولا المُقرَّبون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم من يأتى بعدهم ، كل طائفة مع مَنْ يناسبها : الصِّدِّيقون مع أمثالهم ، والشهداء مع أقرانهم ، وكل فرد فى صنف مع صنفه ، حتى إذا جاءوها فُتحت لهم أبوابها . وفى الحديث : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل مِنْ أيِّها شاء » والثمانية فى الحديث لا يراد بها الحصر ، وإنما يراد الإشارة إلى كثرة أبوابها . وفى الحديث أيضاً أن « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على صورة أشد كوكب دُرِّىٍّ فى السماء إضاءة » . ويستقبلهم خزنتها من الملائكة محيِّين مهنئين قائلين كما جاء فى سورة الزُّمَر : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) .

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) :

تنكير كلمة (نفس) فى الآية يفيد العموم أى كل نفس كما جاء فى سورة

آل عمران : (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وبَيْنَه أَمَدًا بَعِيدًا) بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب ، وكأن الله يحذِّر العباد عاقبة أعمالهم فى الحياة وأنه ينبغى أن يسارعوا إلى عمل الخير قبل أن يندموا ولا ينفعهم الندم . والمراد بقوله تعالى فى الآية : (مَا أَحْضَرَتْ) أعمالها الخيِّرة والسيئة التى عملتها فى دنياها ، وإحضار النفس لها إما بما رأته مرتسماً فى صحائفها كما مرَّ بنا فى آية : (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) ، فهى ترى أعمالها منشورة أمامها وكأنها أحضرتها بيديها ، وإما تراها فعلاً وكأن أعمال كل شخص تجسَّم أمام عينيه فى صور أخروية لا نعرفها . وعلم النفس بأعمالها أنها تراها وتبصرها . وقيل بل المراد أنها تعلم علم اليقين جزاءها وما ستناله من الثواب والعقاب على أعمالها ، فإن فى ذلك تمام العلم والمعرفة . والآية جواب (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وما عطف عليها من صفات الدنيا قبيل المعاد وصفات الآخرة ، وهى جميعها اثنتا عشرة صفة : ست للاخرة ، وست للدنيا . وليس معنى ذلك أن النفس تعلم ما عملت منذ انهيار الكون واضطرابه قبيل المبعث ، فهى لا تعلمه ولا تتحققه إلا فى الآخرة وحين تنشر الصحف ، ولكن لما كان بعض تلك الصفات من مبادئ البعث والجزاء وبعضها من روادفه ، أو بعبارة أخرى من مبادئ علمها بالصحف وبعضها من تواليه نُسِب علم النفس بما أحضرت إلى كل هذا الزمان تهويلا للخطب وزجرًا عن المعاصى . وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ السورة فلما بلغ هذه الآية قال : لهذا أُجْرِىَ الحديث ، وقيل : قال : لهذا أُجريتِ القصة . وفى الصحيحين قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان فينظر ، أيمن منه

فلا يرى إلا ما قدَّمه ، وينظر أشأَمَ منه فلا يرى إلا ما قدَّم بين يديه ، فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يَتَّقِيَ النار ولو بشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيفْعَلْ » .

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) :

أقسم الله بالسماء والكواكب والنجوم فى القرآن مرارًا للدلالة على قدرته وما أودعه الكون من نظام محكم وتدبير متقن ، وليلفت إلى أنها من صنعه ومخلوقاته ، فمهما أحسَّ الناس من منافع فيها فإنه ينبغى أن يردوها إلى من وهبها لهم ، وأن لا يعبدوها من دونه ،فهو الجدير بالعبادة لما أودع فيها من المنافع والأسرار ، ويصرِّح بذلك جَلَّ ثناؤه فى سورة النَّجْم إذ يقول إنه : (رَبُّ الشِّعْرى) وهى نجم نَيِّر فى السماء كانوا يعبدونه ويروون فيه الأساطير ، ويقول الله أيضاً فى سورة فُصِّلَتْ : (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ واسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ) ، فهو الذى خلق الكوكبين ووهبهما نورهما ولو شاء لطمس هذا النور ، إنه واهبه وصانعه ، وهو لذلك الخليق بالعبادة . ويقول إنهما من آياته هما وما يتبعهما من اختلاف الليل والنهار ، آيات تدل على قدرته ووحدانيته . ولقوتهما وقوة الأجرام والنجوم فى التعبير عن هذه الدلالة كرر الحديث عنها جميعاً فى القرآن وأقسم بها ، ليعبدوا الرب دون المربوب والصانع دون المصنوع . والنفى فى قوله : (فَلَا أُقْسِمُ) لتأكيد القسم ، وكأن النفى خرج عن وظيفته ليؤدى معنى الرد والزجر ، كأنه قيل : لا ، أو كلا ، ثم عُدل إلى القسم ، وهو أسلوب من أساليبه يفيد التأكيد فيه . وقيل : بل النفى على حقيقته وأنه يفيد تعظيم المقسم به وأنه عظيم فى نفسه وليس فى حاجة

إلى قسم ، كما تصور ذلك سورة الواقعة فى قوله تعالى : (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) . والخُنَّس جمع خانس وخانسة من الخنوس وهو التأخر ، يقال خَنَس الرجل عن القوم إذا تأخر ، وأصل الخنوس الرجوع إلى خلف ، وقد تدل المادة على الاختفاء ، ومنه سُمِّىَ الشيطان خَنَّاساً ، وفى الحديث : « الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خَنَس » .ويقال فى أنفه خَنَسٌ وهو انخفاض القصبة وعرض الأَرْنَبة ، ومنه تسمَّى البقرة الوحشية بالخنساء ، وقد تسمَّى بذلك بعض الإناث نعتاً بها مثل الخنساء الشاعرة المعروفة . والخُنَّس فى الآية الكواكب تخنس بالنهار فتختفى تحت ضوء الشمس ولا تُرى، وكأنما يراد بها الكواكب الخمسة الدَّرارى ، وهى زُحَل والمُشْتَرِى وعطارد والمِرِّيخ والزُّهَرة ، ويمكن أن يضم إليها القمر لخنوسه نهارًا والشمس لخنوسها ليلا ، وبذلك تشمل الخنس جميع الكواكب السيارة ، أو بعبارة أخرى كواكب المجموعة الشمسية ، ولكل منها فلكها الخاص الذى تَجْرى فيه وتُشْرق وتَغْرب أو تَظْهر وتختفى . وقيل : بل هى كل كوكب فى السماء ، وقيل بل كل نجم . و (الجوار) جمع جارية ، لجريانها الدائب فى السماء أو فى الكون . و(الكنَّس) جمع كانس وكانسة ، وهى صفة ثالثة للكواكب ، وأصلها من كِناس الظبى وهو بيته الذى يتخذه فى الشجر للاستتار فيه من الحر والمطر ، ويقال كنس الوحش فهو كانس إذا دخل فى كِناسه واستتر فيه . والله يقسم بالنجوم فى حال كنوسها وغروبها وفى حال اختفائها وتأخرها أو خفوت ضوئها وفى حال ظهورها وجريانها ، دلالة على قدرته البالغة وحكمته وما أودع الكون من سُنَنه. وقيل : الخُنَّس فى الاية بقر الوحش ، والكُنَّس الظباء التى تستتر فى

كُنُسها وبيوتها الشجرية . والأصح حمل الآيتين على الكواكب لذكر الليل والصبح بعدهما ، وأضاف ابن قيم الجوزيَّة إلى ذلك وجوهاً أخرى منها أن البقر والظباء لا تختفى عن العيان اختفاء مطلقاً ، بل لا تزال ظاهرة فى الفلوات، ومنها أن كلمة (الخنَّس) لو كانت جمعاً للأخنس من البقر لقيل الخُنْس بضم الخاء وسكون النون مثل أحمر وحُمْر ولو كانت جمعاً للخنساء من البقر لقيل الخنساوات مثل حسناء وحسناوات ، إنما هى جمع خانس مثل صائم وصُوَّم وقائم وقوَّم : وبذلك يتعين أن الآية فى الكواكب لا فى بقر الوحش ولا فى الظباء وبخاصة أن القرآن لم يأت فيه قسم بحيوان . وأيضاً فإنه إذا جُعل القسم بحيوان لم تتضح الصلة بين القسم والمقسم عليه وهو القرآن ، أما الصلة بينه وبين الكواكب فواضحة ، إذ هى تهدى الناس بأضوائها ليلاً ونهارًا كما يهدى القرآن أمته بأضوائه الربانية العظيمة .

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) :

العَسْعَسَةُ من العُسِّ وهو القدح العظيم الممتلئ ، وكأنها الامتلاء من شىء ، ومن هنا قيل إن (عَسْعَسَ) فى الآية معناها استكمال امتلاء الظلام ، وهو وقت انتهائه ، أو بعبارة أخرى معناها إدباره . وقيل بل معناها ابتداء امتلائه ، وهو وقت دخوله ، أو بعبارة أخرى معناها إقباله أى إقبال الليل بظلامه . وكأن (عَسْعَسَ) من الأضداد ، يُقال لليل إذا أقْبل وإذا أدبر ، والمعنيان يرجعان إلى شىء واحد هو ابتداء الظلام فى أول الليل وإدباره فى آخره . واختلف المفسرون ، فمنهم من رجَّح أن يكون معنى (عَسْعَسَ) أقْبَلَ ، ومنهم من رَجَّح أن يكون معناها أدبر ، أما من رجح معنى الإقبال فقد حاول

أن يربط بين الآية وتاليتها وبين قوله تعالى فى سورة الليل : (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) : فغشيان الليل للشمس وتغطية ضوئها وستره نظير عَسْعَسته وإقباله . وتجلِّى النهار وانكشافه وظهوره بزوال ظلمة الليل ووضوح ضوئه نظير تنفُّس الصبح وانبلاجه وشروق نوره . وأما مَنْ رَجَّح معنى الإدبار فى عَسْعَسَةِ اللَّيْلِ فقد ربط بين الآيتين وبين قوله تعالى فى سورة المُدَّثِّر : (والْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ والصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) . والإدبار نقيض الإقبال، والإسفار الإضاءة من قولهم سَفَرَ وجْه فلان وأسفر إذا أضاء وأشرق حسناً . وقال الراغب : السَّفْر كشف الغطاء ، ومنه امرأة سافر إذا كشفت قناعها عن وجهها . والإسفار يختص باللون مثل : (وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) أى أشرق لونه ووجهه وأضاء . وقيل : بل أسفر معناها كَنَس إذ يكنس ضَوْءُ الصبح الظلام . وقد اختار ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة أن يكون معنى (عَسْعَس) فى الآية أدبر . لأن إدبار الليل يليه الصباح دون فاصل ، وهو المناسب مع القسم فى سورة المُدَّثِّر . أما إقبال الليل فبينه وبين إقبال النهار زمن طويل ، وكأن الله يقسم بالليل فى حال تلاشيه من الآفاق والصبح من ورائه يطرده بأنفاسه . وتنفُّس الصبح كما مر بنا تبلُّج أضوائه وإشراقها ، وقيل : بل امتداده حتى يصير نهارًا واضحاً إذ يقال للنهار إذا زاد تنفس ، وقيل بل انشقاقه وانفلاقه كما قال تعالى فى سورة الأنعام عن نفسه : (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ) أى يشق به غبشة الفجر عن أضواء الصباح فينير الوجود ، ويذهب الليل بظلامه ويخلفه النهار بأضوائه . وقيل التنفّس من النَّفَس وهو النسيم الذى يخرج من الرِّئة للترويح عن القلب ، وقد استعاره الله لما يقبل مع الصبح من الأضواء . وكأنها نسيم وأنفاس تهب على الوجود لتفرِّج

عنه كُرَب الظلام وغُمَم سواده . والصلة واضحة بين هذا القسَم والقرآن المقسم عليه ، فكما أن الوجود تدبّ فيه الحياة حين يخرج من الظلمات إلى النور كذلك القرآن فى حياة الإنسانية فهو صبحها الذى طال عليها انتظاره ، كى ترفع عنها أستار الظلام والضلال ، وحتى تتخلص مما كانت تغرق فيه من الشرك بالله وما يتبعه من الخطايا والموبقات ، وقد أخذت أشعته ، تهبط فى آفاق مكة والحجاز ، وجيوش الظلام والكفر والشر تولّى مدبرة إلى غير مآب ، وتدقّ البشائر بأن الإنسانية ستنهض على أضواء الإسلام إلى ما ينبغى لها من هدى ورشاد .

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) :

الضمير فى (إنه) يعود إلى القرآن وإن لم يسبق له ذكر لتعيُّن العلم به على نحو ما عاد الضمير إلى النفس فى آية الواقعة : (فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ) لتعيُّنها والعلم بها . والآية جواب للأقسام قبلها . والرسول فيها هو جبريل . وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وكأن أصحاب هذا القول نظروا إلى آيات سورة الحاقة : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) ، والآيات حقًّا فى الرسول عليه السلام وما كان يزعمه أعداؤه من أنه شاعر أو كاهن ، فالله يرد عليهم بأن قوله ليس قول كاهن ولا شاعر وإنما قول رسول كريم على ربه لا ينطق عن الهوى . أما هذه الآية التى نحن بصددها فقد تلتها صفاتٌ نُعِتَ بها جبريل فى سورة النَّجْم وغيرها على نحو ما سينضح عما قليل . والرسول هو الذى يؤدِّى كلام من أرسله ، فجبريل يؤدى كلام ربه إلى

النبي ، والنبي بدوره يؤديه إلى الناس ، فهو ليس كلام أحدهما إنما هو كلام الله ورسالة منه إلى البشر أنزلها من ملكوته الأعلى هداية لهم ، وكان أول إنزالها فى شهر رمضان كما جاء فى سورة البقرة : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاس وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى والفُرْقَان) أُنْزِلَ فى ليلة مباركة من لياليه كما قال جَلَّ ثناؤه : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ) ، وقد أضاف الله إنزاله إليه دون رسولٍ أو دون جبريل تعظيماً له ، وكأنه يقول إنا قدَّرْنَا إنزاله فى تلك الليلة العظيمة . ومعروف أن القرآن أُنْزِل منجَّماً أو مقسَّطاً فى ثلاث وعشرين سنة ، وكان يُكْتَبُ ويُحْفَظُ عند نزوله . وإنما قال : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) كأنه أنزله جملة واحدة ليدلَّ على أنه كان مدوَّناً فى علم منذ الأزل . وقد أنزله تدريجاً لتسهيل حفظه على الرسول وتثبيت فؤاده كما قال جَلَّ شأنه فى سورة الفُرْقان : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) . والروح المذكورة مع تنزل الملائكة فى ليلة القدر هى جبريل . وغلطٌ ما ذكره بعض المفسرين من أن مَلَك لو التقم السموات والأَرَضِين كانت له لُقْمَةً واحدة ، أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه فى تخوم الأرض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا ، وفى كل رأس ألف وجه وفى كل وجه ألف فم وفى كل فم ألف لسان ، يسبِّح الله بكل لسانٍ ألف نوعٍ من التسبيح والتحميد والتمجيد وهو مما دخل على التفسير من الإسرائيليات المضلِّلة . وقد ذُكر جبريل فى القرآن باسمه وأنه رسول ربه إلى نبيه بآياته ينفث بها فى قلبه أو روعه كما

جاء فى آية سورة البقرة : (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بإِذْنِ اللهِ) ونُعِتَ بأنه الروح الأمين فى آيات سورة الشُّعَراء : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) ، فالله قد أنزله على رسوله بلسانه العربى ليبيِّن لقومه رسالة ربه بياناً عربيًّا ، بل ليبلِّغها إلى الناس كافة حتى تُكْفَلَ لهم السعادة فى الدنيا والآخرة ، متخذًا رسوله إلى نبيه جبريلَ الروح الأمين ، يحمل إليه كلامه وتعاليمه . وينبغى أن نعرف أن كلام الله الذى نزل به جبريل على نبيِّه قسمان : القرآن والحديث القُدْسى ، وهو ما تشير إليه آية سورة الشُّورَى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَايَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) . والوَحْىُ فى الآية يُرَاد به نَفْثُ جبريل فى قلب الرسول بما يكون إلهاماً فى اليَقظة أو فى الحلم والمنام من مثل قوله صلى الله عليه وسلم : إن جبريل أو روح القُدُس نفث فى رُوعى (قلبى) : « إن نَفْساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتّقوا الله وأَجْمِلُوا فى الطَّلَبِ ، خُذُوا ما حَلَّ ودَعوا ما حَرُم » . أما كلام الله (مِنْ وَرَاءِ حجَابٍ) فالمراد به كلام الله لموسى عليه السلام وكان قد سأل ربه الرؤية بعد تكليمه فحُجِبَتْ عنه . أما الوسيلة الثالثة لكلام الله فهى أن يرسل لنبيٍّ رسولاً من عنده يبلغه بإذنه كلامه على نحو إرساله جبريل بكلامه وقرآنه لنبينا عليه السلام ، فكان يسمعه منه نطقاً ويراه عِياناً . وعن ابن عباس أنه لم يره من الأنبياء سوى موسى وزكريا وعيسى ومحمد ، أما بقية الأنبياء فكان ينفث فى روعهم وَحْيًا وإلهاماً فى اليقظة أو فى المنام . ومعنى ذلك أن جبريل كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم عِياناً بالقرآن ونَفْثاً وإلهاماً ببعض

السنّة أو ببعض الحديث ، وهو ما يسمى بالحديث القدسيّ ، ومن أجل ذلك جازت رواية الأحاديث القدسية بالمعنى ، ولم تجز رواية القرآن به لأن الرسول أدّاه بلفظه كما أنزل عليه ، فأصبح هذا اللفظ مقدّسًا يتعبّد به كما أصبح مناط إعجازه البلاغى الذى تنقطع دونه الرقاب ، والذى يخلب العقول والألباب .

(ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) :

وُصف جبريل فى الآية السالفة بأنه كريم على ربه عزيز عليه تشريفاً له وتكريماً ، ووُصف فى هاتين الآيتين بأربع صفات أخرى ، والصفة الأولى صفة القوة ، وقد جاءت فى وصف الله له بسورة النَّجْم إذ قال عن تبليغه رسالته إلى نبيه : (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ) والمِرَّة شدة القوة وحصافة العقل ، وهما صفتان من شأنهما أن يتيحا للرسول تأدية رسالته . وصوَّر بعض الإخباريين قوة جبريل عن طريق الإسرائيليات الباطلة ، فقالوا : بلغ من قوته أنه اقتلع مدائن قوم لوط من الأرض وحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء وسمع أهلها نباح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها جاعلاً عاليها سافلها ، وقالوا إنه صاح صيحة بثمود فى عددهم وكثرتهم فأصبحوا جاثمين خامدين ، وإنه رأى شيطاناً يكلم عيسى عليه السلام فى عقبة من عِقاب الأراضى المقدسة فنفحه نفحة بجناحه فألقى به فى أقصى الهند . و (عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ) هى الصفة الثانية من الصفات الأربع فهو وجيه عند ربه مقرب إليه له منزلة عظيمة . وذو العرش وصاحبه الله جَلَّ جلاله ، وقد كَنَّى بالعرش فى القرآن عن سلطانه وملكه وعِظمهما ، وينبغى أن نعتقد به

غير أننا لا نعلم حقيقته ، ومن الخطإ أن نفتح الباب فى بيان كنهه للإسرائيليات حتى لنجد الزمخشرى المعتزلى الذى أوّل الكرسى فى آية سورة البقرة : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) بأنه تصوير لعظمة الله وتخييل فقط. ولا كرسىّ ثمة ولا قعود ولا قاعد يشارك فى إدخال طائفة منها فى تفسيره لآية غافر : (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) والآية كناية عن تصريف الملائكة للملك الإلٰهى وقواه الكونية ، ونرى الزمخشرى يقول : إن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طَرْفهم وهم أشراف الملائكة وأفضلهم ، ويقول : حول العرش سبعون ألف صَفٍّ من الملائكة يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صَفٍّ قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ، من ورائهم مائه ألف صَفٍّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبِّح بما لا يسبِّح به الآخر . وقد ذكرنا ذلك عند الزمخشرى لندلّ على مدى ما دخل التفسير من إسرائيليات لم يستطع أن يبرأ منها مثلُ الزمخشرى مع احترازه . وما دخل فى تصوير جبريل منها يفوق كل خيال ، من ذلك ما قيل من أنه يوجد عن يمين العرش نهر من نورٍ مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة يدخل جبريل كل يومٍ فيه سَحَرًا ، فيغتسل فيزداد نورًا على نوره وجمالاً على جماله وعِظَماً على عِظَمه ، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة تقع من ريشه سبعين ألف ملك . وقيل إنه حين يقف بين يدى الله ترتعد فرائصه هيبة وخشية ، فيخلق الله من كل رِعْدَةٍ مائة ألف ملك ! وكأنهم يريدون بذلك أن يعبِّروا عن مكانته عند ربه ، ويكفى فى تصويرها أن نعرف أن القرآن

ذكره مرارًا والملائكة من حوله كما فى آية سورة النَّبأ : (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا) بل لقد ذكره الله معه ومن حولهما الملائكة وصالح المؤمنين فى نصرة الرسول عليه السلام كما جاء فى سورة التَّحريم : (فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) . وهو تصوير قوى لمكانة جبريل عند ربه . والصفة الثالثة لجبريل فى الآيتين أنه (مُطَاعٌ ثَمَّ) أى هناك فى مَلئه الأعلى يطيعه الملائكة ويصدرون عن أمره لعلمهم بمنزلته الشريفة عند ربه ، وكأن طاعته فريضة على أهل السَّمٰوَاتِ كما فُرضت على أهل الأرض طاعة الرسول عليه السلام . والصفة الرابعة فى جبريل أنه (أمين) فهو أمين على وحى الله مؤتمن عنده على رسالاته إلى أنبيائه ، وقد سَمَّاه فى سورة الشعراء كما مَرَّ بنا (الروح الأمين) وسماه مرارًا : (روح القُدُس) كما فى آية سورة النَّحْل : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) . وقيل القُدُس الله وكأنه أضافه إليه تشريفاً . وقيل القدس الطُّهْر ، فهو روح الطهارة ، وقيل : بل التقديس فهو روح مقدَّس عظيم .

(وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) :

كان من المشركين فى مكة مثل عقبة بن أبى مُعَيْط. مَنْ يكثرون من قولهم إن محمدًا عليه السلام مجنون ، فردَّ الله عليهم افتراءهم مرارًا بمثل قوله فى سورة الصَّافَّات : (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) . وقد ذكره هنا بصفة الصحبة لهم والرفقة تعريضاً بأنهم يعرفونه أدق المعرفة ، يعرفون حصافته ونزاهته وأمانته ، وقد

بلغ من إعجابهم به شاباً أن لقّبوه الصادق الأمين . وفى ذلك رد بليغ عن طريق التعريض والتلويح على ما يلوكه أعداء الدين الحنيف فى حقه من أمثال ابن أبى مُعَيْط وما يقولونه كذباً وبهتاناً عليه من أنه مجنون ، وهم الذين مسّهم الجنون حين ركبوا رءوسهم ومضوا فى غيِّهم يحادُّونه ويحادُّون الله منكرين أن يكون قد نزل عليه وحى من السماء وأن يكون الله قد خصّه برسالته الكبرى . وفى الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن أول ما بُدِئَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرُّؤيا الصادقة ثم حُبِّب إليه الخَلاء فكان يأتى حِرَاء فيتحنَّث (يتعبَّد) فيه الليالى ذوات العدد ، ويتزوَّد لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فتزوِّده لمثلها ، حتى فجأه الحقّ وهو فى غار حِرَاء (بجبل النور) فجاءه المَلَكُ ، فقال : اقْرَأْ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطّنى (عصرنى) حتى بلغ منى الجَهْد ثم أرسلنى ، فقال : اقْرَأْ . فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطّنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقْرَأْ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى ، فغطّنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) حتى بلغ (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فرجع بها يَرْجُفُ فؤاده حتى دخل على خديجة ، فقال : زمِّلونى (غطُّونى) فزمَّلوه حتى ذَهب عنه الرَّوْع » . وظل جبريل ثلاثة وعشرين عاماً ينزل بالقرآن على قلبه الشريف بلسان عربى مبين ، وفى الحديث الصحيح أنه كان يأتيه فى ثلاث صور : فى مثل صَلْصَلة الجَرَس أى فى صوت ذى رنين ، وفى صورة هادئة يكلمه فيها دون صوت قوى مستطيل ، وفى صورة مشتدة على نحو ما جاءه فى أول الوحى . وكان جبينه يَتَفَصَّدُ فى اليوم البارد عَرَقاً . وكأنه كان مزوَّدًا لتلقّى هذا

الفيض الإلٰهى بقُوًى وحواسّ فوق قوانا وحواسّنا العادية . وتلقّاه أولا فى غار حراء ، ثم كان يتلقّاه وهو جالس مع أصحابه أو فى بيته مع بعض زوجاته . ويقول الله جَلَّ ثناؤه : (وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ) رؤية صادقة لا مرية فيها ، ويقول فى سورة النَّجْم مفصلا رؤيته له بعض التفصيل : (إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) ، واستوى تراءى له فى صورته ، والأفق ناحية السماء ، وتدلّى قرب من النبى عليه السلام حتى كان بينهما قدر قوسين أو دونهما فأبلغه وحى ربه ، وإنها لرؤية بالعين المبصرة فكيف تجحدونه ؟ ويقول جَلَّ شأنه إنه رآه مرة أخرى عند شجرة المُنْتَهَى ، ويقول المفسرون إن هذه الرؤية الثانية كانت فى أثناء معراجه إلى السماء ، فقد أُسْرِى به ليلاً إلى المسجد الأقصى ثم صَعَد منه إلى السموات . والقائلون بهذا القول يجعلون معراجه مثل إسرائه فى اليقظة لا فى المنام . ونَصُّ الذكر الحكيم على هاتين الرؤيتين لجبريل مع أن الرسول رآه مرارًا وتكرارًا جعل جمهور المفسرين يقولون إنه رآه فيهما على صورته الملائكية الحقيقية ، وكان يأتيه فى صورة بشرية . وليس فى الآية التى نحن بصددها ولا فى آيات النجم ما يدل على أنه رآه فى تلك الصورة الخاصة ، إنما كل ما هناك أن الله ينص على رؤيته لجبريل رؤية حقيقية محسوسة بعينيه وأن كل ما يقوله عن رؤيته له حق وصدق فى العين والفؤاد والبصر والاعتقاد ، فهو يقين لا يبلغه يقين . وكأنما كان الحديث عن هذه الرؤية لصورة جبريل الملائكية فرصة لكى يدخل

طوفان من الإسرائيليات ، من ذلك ما قيل من أن رؤية الرسول عليه السلام جبريل لأول مرة كانت فى غار حِراء أى فى مطالع الوحى ، وأنه رآه قد أقبل بخشخشة وصلصلة من جبال عرفات حتى ملأ الآفاق بصدره ، رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء وجناح له بالمشرق وجناح له بالمغرب وله ستمائة جناح من الزبرجد الأخضر ، فغُشِى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتحوّل جبريل فى صورة الآدميين ، ونزل إليه فقال : يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتى الستمائة وإن كل جناح منها ليسع ما بين المشرق والمغرب ، ولقد خلق الله إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه فى تخوم الأرض السابعة وله ستمائة جناح مثلى غير أن كل جناح منها قدر جميع أجنحتى وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله حتى يكون بقدر العصفور الصغير . ومن الغريب أن يؤمن بعض الأسلاف بمثل هذا الخبر الزائف ويفتحوا باباً طويلاً للحوار فى قدرة جبريل على التشكل فى غير صورته الحقيقية ، وتساءلوا هل التشكل فى جسده فقط. أو هو فى جسده وروحه وهل يكون ذلك بقدرته أو قدرة ربه ؟ وتدخل فى ذلك ترهات تغرق فى الخيال إغراقاً بعيدًا ، إذ يزعم بعضهم أن الله يمنح الملاك قوة التصرف فى جسده على نحو ما منح ذلك للأولياء ،إذ يقولون إن منهم مَنْ يقيمون فى أمكنتهم وترحل أشباحهم إلى أمكنة أخرى يراهم فيها الناس رؤية حقيقية ، وقد تورط فى مثل هذا البهتان بعض الأسلاف حتى قالوا إن من كرامات الأولياء أن تكون لهم أجساد متعددة . وكان نفر منهم يسمّى هذا التحول باسم عالم المثال ، وهو عالم متوسط. بين عالمى الأجساد والأرواح ، ألطف من العالم الأول وأكثف من العالم الثانى ، فالأرواح تتجسد وتظهر فى صور مختلفة من عالم المثال . وعلى

ضوء من هذه الفكرة الضالة زعم بعض غلاة الشيعة الإسماعيلية أن أئمتهم يتحولون إلى عالم المثال تحولا يصبحون فيه عقولا فعالة ونفوسا كلية بحيث تُسْبَغُ عليهم صفات الله وألقابه وأسماؤه وأفعاله . وإنما استطردنا إلى بيان ذلك لندل على خطورة الأخذ بالأخبار غير الوثيقة وأن سيولا كثيرة من الإسرائيليات دخلت فى التفسير وتناثرت فى صحفه ومصنفاته دون أن يتنبه إليها المفسرون ، ولو تنبهوا لكانوا أول من نفوها عن التفسير وساحاته . وحقيقة جبريل الملائكية وحقيقة غيره من الملائكة ينبغى أن لا نتعدَّى فى تصورهما ما جاء به القرآن والحديث الصحيح ، وقد جاء فى سورة فاطر : (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) . والله جَلَّ ثناؤه يشير برسل الملائكة إلى مثل جبريل فى رسالته عنه إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال إن للملائكة بل للرسل منهم أجنحة ، وكأنه كان لجبريل فعلا أجنحة وليس من الضرورى أن تكون هذه الأجنحة من الريش كأجنحة الطير ، لأنها من عالم الغيب وكل ما فيه نجهله . وقد قال السُّهَيْلى شارح السيرة النبوية إن الأجنحة فى حق الملائكة صفة ملائكية وقوة روحانيَّة وليست كأجنحة الطير . وكأنما اتخذها القرآن تعبيراً عن قوة جبريل ونظرائه من رسل الملائكة وبياناً عن قدرتهم على الصعود إلى الملإ الأعلى والهبوط إلى الدنيا تقريباً وتيسيراً فى الفهم ، وإذن فهى فى سورة فاطر تقابل تصوير جبريل فى هذه السورة بقول الله تعالى : (ذى قوة) وفى سورة النجم بقوله إنه : (شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّة) فهو قوىٌّ قوة عظيمة على الهبوط والصعود فى السَّمٰوات والأرضين ، وهو قوى فى تبليغ الرسالة إلى النبى صلى الله عليه وسلم لا يعجزه

شيء ، وكأن ذلك كله إعراب عن كمال قوته ، التى جعلته يُجْرى القرآن على لسان الرسول عليه السلام فيتلوه عنه بعد أن يسمعه بوضوح منه ، وبعد أن يفقهه عنه وتتم له معرفته به : المعرفة اللسانية والقلبية .

(وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) :

(وما هو) أى الرسول صلى الله عليه وسلم . والغَيْبُ القرآنُ والوحْى . ومعنى ضنين بخيل . فهو لا يبخل بالقرآن النفيس على غيره ، بل هو يذيعه فى الناس ولا يكتم منه شيئاً ، يستأثر به لنفسه . وقيل الضن والبخل هنا ليس بالقرآن نفسه وإنما بتعليمه ، فهو لا يَضِنّ بتبيينه للناس وتبيين أحكامه وتعاليمه ومواعظه . وقرئت (بضنين) بالظاء أى (بظَنين) والظنين المتهم من الظِّنَّة وهى التهمة ، والمعنى أنه فوق أن يُتَّهم على تبليغ القرآن ، وكل ما اتهموه به باطل ، فإنه أمين على ما يسمع ، لا يتقوَّل ولا يقول كذباً وإنه لصاحبكم قد عرفتموه بطول صحبتكم له وعرفتم أمانته وصدقه وطالما جَرَّبتموه واختبرتموه وعرفتم ظاهره وباطنه وأنه لا يُرتاب فى صدقه ولا فى صحة ما يورده على أسماعكم . وكانوا يقولون إن ما جاء به ليس رسالة سماوية ، وإنما هو كهانة ووسوسة نفس الشياطين التى كانوا يؤمنون أنها توسوس إلى كهنتهم بالغيب . وكانوا منتشرين فى الجزيرة العربية ، وكانوا يزعمون أنهم يعلمون الغيب وأنه سُخِّر لهم شياطين من الجِنِّ تسترق لهم السمع وتأتيهم بما كُتب على الناس فى ألواح الغد ، وكان لكل كاهن شيطانه ويسمَّى رَئِيًّا . واستقرَّ ذلك فى نفوس العرب فى الجاهلية وأصبح عقيدة ثابتة لهم ،

وكانوا يلجئون إليهم لاستشارتهم فى الأمور الخطيرة كإعلان حرب أو كشف قتل أو معرفة سرقة أو قعود عن نصرة أحلاف ، فكانوا يوردون عليهم فى هذه الشئون وأمثالها كلاماً مسجوعاً مبهماً يمتلئ بالإيهام ملقين فى رُوعهم أن الشياطين تنفثه على ألسنتهم . وقد حمل عليهم الدين الحنيف حملة شعواء ونهى عن تصديقهم ، ومع ذلك مضى بعض أعداء الرسول من قريش يقولون عنه إنه كاهن وساحر ويَصْدر عن بعض الشياطين على نحو ما كان يغويهم كهنتهم ويحملونهم على الاعتقاد فى توابع لهم من الجن ، وردَّ القرآن عليهم هذا الافتراء الكاذب مرارًا ، تارة ينفى عن الرسول الكهانة كما فى آية سورة الطُّور : (فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ) وتارة ينفى أن يكون القرآن تعليم شيطان أو رَئِيٍّ من الجنِّ ، فإن شيطاناً لا يستطيع أن يصل إلى الملإ الأعلى كما جاء فى سورة الشعراء : (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) ، فهم محجوبون عن سمع الملإ الأعلى ولا يمكن أن يصعدوا إليه ولا أن يطَّلعوا على ما فيه من القرآن أو من الغيب الذى تزعم كهنتهم أنهم يكشفونه لهم . وترد الآية على الكفار دعواهم فى إنكار شديد ، إذ تصف الشيطان بأنه (رَجِيمٌ) أو بعبارة أخرى ملعون لعنة أبدية محروم من رضا ربه فكيف يحمل هداه وقرآنه ؟ إنما يحمل هذا القرآنَ والهدى والنور ملاكٌ كريم على الله قويّ عند ربه مكين مطاع فى العالم الأعلى عالم النور والجلال أمين على حمل رسالة ربه وتبليغها إلى رسوله بتأييد من الله العلى العظيم . ويوبِّخ الله المشركين على تماديهم فى الغَيِّ والضلال بعدما أبصروا الهدى والرشاد ، فيقول لهم : (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) وأى طريق تختارون ، لقد عرفتم معرفة يقينية أن محمدًا ليس مجنوناً وليس كاهناً

يزعم أنه يحكى عن شياطين ، إنما هو نبي صادق يحكى عن وحى مبين . وكأن الله يريد أن يسجل عليهم ضلالهم فقد بان الهدى أمامهم ، وهم لا يتابعون نوره ، وكأن على عيونهم غشاوة وفى آذانهم وقرًا ، فهم لا يستجيبون إليه ، ويقول لهم الله : (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) استنكارًا لموقفهم وبياناً لضلالهم ، وقد أوضح هذا المعنى فى آية سورة يونس إذ يقول : (فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) أى فكيف تتحولون من الحق إلى الباطل ومن التوحيد إلى الشرك ومن الهدى إلى الضلال ؟ إنه ليس أمامكم إلا طريق واحد ، طريق الهدى والتوحيد والحق والإيمان بمحمد ووحيه وقرآنه المبين .

(إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) :

الذكر البيان ، ويشمل كل ما جاء به القرآن من هدى وموعظة وتعاليم متصلة بالعقيدة والعبادة أو بالإيمان والعمل والخلق والسلوك وطرق الخير والشر والصالحات والموبقات . ويصور ذلك ابن قَيِّم الجَوْزِية فيقول : «إن القرآن يذكِّر العباد بمصالحهم فى معاشهم ومَعادهم ، ويذكرهم بالمبدأ والمبعث ويذكرهم بالربِّ تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه على عباده ، ويذكِّرهم بالخير ليقصدوه وبالشر ليجتنبوه ، ويذكرهم بنفوسهم وأحوالها وآفاتها وما تكمل به ، ويذكِّرهم بالشيطان عدوهم وما يريد منهم وبماذا يَحْترزون من كيده ومن أى الأبواب والطرق يأتى إليهم ، ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه وأنهم مُضْطَرُّون إليه لا يستغنون عنه نَفَساً واحدًا ، ويذكرهم بنعمه عليهم ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها ، ويذكرهم بأسه وشدة بطشه

وانتقامه ممن عصى أمره وكذّب رسله ، ويذكرهم بثوابه وعقابه ». ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أنه يذكِّرهم عقابه لا يوم الحساب فحسب ، بل أيضاً عقاب الأمم الماضية وطُغاتها وشعوبها الذين عَصوا الله وحادُّوا رسله وأنبياءه وقاوموا نُذره فدمرهم تدميرًا ، ويذكرهم دعوته الإصلاحية الاجتماعية الكبرى فى سبيل إقامة أمة متآخية روحيًّا واقتصاديًّا ، أمة عالمية تضم البشر جميعاً وتُمْحَى فيها الحواجز الإقليمية والفوارق العنصرية كما قال تعالى فى سورة الحُجُرات : (يَـأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) ويؤكِّد الرسول هذا المعنى فى خطبة حِجَّة الوداع إذ يقول : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » ، كما يؤكده فى أحاديث كثيرة من مثل قوله : « إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنَّن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم وأحبّكم إليه أتقاكم » . ومرَّ بنا فى سورة الرحمن ، وسنرى فى سورة الماعون أن الله جعل الحضَّ على طعام المسكين فى مرتبة مساوية لتوحيده والإيمان به وقد جعل رَدَّ الموسر بعض ماله على الفقير وعلى المصلحة العامة للأمة والدولة فريضة دينية ، حتى يكون هناك تكافل قوى بين أفراد الأمة . وليس ذلك فقط ما يذكِّر به القرآن فهو يذكر كما مرَّ بنا فى سورة الرحمن بدعوته القوية إلى العلم والتعلم واستغلال قوى الطبيعة وبذلك يجمع بين الروح والعقل جمعاً وثيقاً ، كما يذكِّر بقيمه الإنسانية الرائعة واعتداده بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه فى كل شىء حتى فى الدين إذ وضع قانونه السَّمح العام : (لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) فلا أحد يُكره على ترْك دينه والدخول فى الإسلام بل يُتْرَكُ الناس أحرارًا وما اختاروا

لأنفسهم من دين . وهو بذلك يضرب أروع مثل لأمة يتعايش فيها الناس من مختلف الأديان تعايشاً سلمياً تقوم على أساسه دولة إنسانية تضم بين جناحيها البَشَر من كل الأقاليم والعناصر والأجناس . وهذا المعنى نفسه أشار إليه القرآن مراراً كما جاء فى هذه السورة إذ قال إنه (ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) أو بعبارة أخرى للثقلين من الإنس والجن ، فهو دين عالمى لكل مَنْ على الأرض. وقد تكررت هذه الصيغة فى مواضع مختلفة من القرآن تكراراً يدل فى وضوح على أن الله اختاره ليكون تتويجاً للشرائع السابقة وصوته القوىّ لهداية الناس ، بل إنه ليجعل له سلطاناً على تلك الشرائع إذ يقول فى سورة المائدة : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) فهو الشريعة الأخيرة الموجهة إلى الجنس البشرى جميعه ، وفى ذلك يقول جَلَّ شأنه فى سورة سَبَأ لنبيِّه : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود » . ولذلك لا نعجب إذا رأينا الرسول عليه السلام فى السنة التاسعة للهجرة بعد أن غمرت أشعة الإسلام الجزيرة العربية يقود بنفسه جيشاً إلى تبوك ، يريد أن يحارب الروم حتى يستأصل قوى الشر والفساد فى تلك الدولة ويُحلّ مكانها قوى شريعته قوى الخير والرشاد . ويتوفّى فينهض خليفتاه بما أراد لدينه عن هُدَى ربه من فتحه العالمَ ، وتُفْتَحُ مصر والشام وإيران . ويمضى النور فى طرق ودروب إلى المحيطين الأطلسى والهادى ، ولا تزال إشعاعاته القوية فيها إلى اليوم . وكل ذلك إنما هو صدور عما كرره الله من عالمية الإسلام وأنه دين الجنس البشرى عامة ، وقد بَيَّن بياناً واضحاً كيف أنه يلائم البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، إذ قال فى سورة الروم لرسوله : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) فهو دين الفطرة الإنسانية يشبع جميع نوازع الإنسان وحاجاته التى لا تتفاوت بتفاوت العصور والأقطار ، وهذا هو ما جعله يسود كل الديانات التى التقى بها فى محيطه كما جعل الأمم والأجناس المتباينة ترتضيه ديناً لها . ومن هنا كان يقال بحق إن الإسلام لم يفتح العالم القديم ودولتيه الكبيرتين : بيزنطة وإيران بالسيف وإنما فتحهما بتعاليمه ورسالته دون أن يفرضها على الناس ، فقد كانوا هم الذين يفرضونها على أنفسهم ، إذ وجدوا فيها ما يخاطب فِطَرَهم وأعماق قلوبهم وضمائرهم وأفئدتهم دون أى إكراه أو أى محاولة للإكراه . والله نفسه جَلَّ ثناؤه بعد أن قرَّر فى هذه السورة أن القرآن ذكر أو دين للعالمين أو لكل من على الأرضين قال : (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) وكأنه يعود ليعطى كل إنسان حريته فى اتباعه ، ويتلطف فى بيان أنه الدين الهادى إلى الحق ، فيقول إنه دين أهل الاستقامة ، وكأنه يريد أن يحضَّ على اتِّباعه ولكن دون أى عسف أو قهر ، فلكل إنسان أن يختار لنفسه ، غير أن من واجبه أن يختار طريق الهدى والرشاد .

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ) :

ظاهر هذه الآية أنها تقييد للآية التى سلفتها ، وكأن الإنسان لا يستطيع أن يشاء لنفسه الاستقامة إلا أن يشاءها الله له ، وهى قضية قديمة تجادلت فيها طوائف المتكلمين من جَبْرِيَّة ، وقدرية أو معتزلة ، وأشعرية ، أما الجبرية فذهبوا إلى أن الإنسان مسلوب الحرية والإرادة وأنه كريشة فى يد القدر يصرِّفها كيف يشاء ، وتمسكوا بمثل هذه الآية ومثل قوله تعالى فى سورة

الإنسان : (إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) ، ومثل قوله فى سورة الجاثية : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) ، وظاهر الآية الثانية أن الله أضلَّ هذا المشرك ومِثْله ، عالماً بأنه من أهل الضلال وأنه كتب عليه ذلك فى سابق علمه ، وأنه طَبَع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وعلى قلبه حتى لا يَفْطن إلى الهدى ، وجعل على بصره غطاء حتى لا يبصر الرشد . غير أن هاتين الآيتين وآية السورة تعارضها آيات أخرى مثل آية سورة الكهف : (وَقُلِ الْحَقُّ من رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) وآية سورة الإنسان : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وإِمَّا كَفُورًا) وآية سورة الأنعام : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آباؤُنا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ) ؛والآية الأخيرة واضحة فى أن المشركين حاولوا أن ينسبوا إشراكهم وتحريمهم لما حَرَّموه إلى مشيئة الله ، وكذلك صَنَع من قبلهم ، وسمى الله صنيعهم تكذيباً للرسل وأن مَنْ قبلهم قد عاقبهم الله عليه أشد العقاب . وبذلك نفى ادعاءهم وأنهم إنما يتبعون فيه ظنًّا آثماً واعتقادًا فاسدًا . وتمسك المعتزلة والقدرية بمثل هذه الآية والآيتين قبلها وقالوا إن الإنسان حرٌّ تمام الحرية فى إرادته وأفعاله وإلا لم يكن مسئولا عن كفره وآثامه وموبقاته ، وأوَّلوا ظاهر الآيات التى تمسك بها الجبرية ، فقالوا فى مثل الآية التى نحن بصددها (وَمَا تَشَاءُونَ) الاستقامة حين تشاءونها أو تختارونها إلا بتوفيق من

الله ولطفه . وتوسط أبو الحسن الأشعرى بين الرأيين المتعارضين فقال إن الإنسان حر فى مشيئته ، غير أن مشيئته محدودة بمشيئة الله . ومعنى ذلك أن مشيئة الله مشيئة مطلقة ليس لها حدود ، أما مشيئة الإنسان فمشيئة محدَّدة بالإرادة الإلٰهية وكأنها تقف عند حَدٍّ محدود ولا تتجاوزه وهو حد يجعلها من كسبه هى وما يتصل بها من الأفعال . وفى رأينا أنه حين يكون ظاهر كلام الله أن الإنسان حر فى مشيئته وأفعاله إنما يصور واقعه وأنه كامل الحرية فى اختيار الطريق الذى يسلكه فى حياته إما طريق الهدى وإما طريق الضلال ، وحين يكون ظاهر كلامه أن مشيئة الإنسان معطلة إذ تسيطر عليه مشيئة الله ، فتهديه أو تضله إنما يصور المشيئة الكونية المضافة إليه وما بيَّنه للإنسان عن طريق رسله وأنبيائه من الهدى والضلال ، أو بعبارة أخرى إنّ الله وضع فى الوجود الأسباب التى تؤدى إلى الضلال والأخرى التى تؤدى إلى الهداية ، فمن اختار الهدى أو الضلال فكأنه اختاره بمشيئة الله دون أن يكون لهذه المشيئة جبر أو قسر ، إذ هى تضع الأسباب الكونية العامة ، والناس يشاءون ويختارون . وكأن هناك مشيئتين : مشيئة صغرى للإنسان ومشيئة كبرى للذات العليَّة ولا تعارض بين المشيئتين .